الفصل الأول

أخلاقيات النبي ﷺ مع أصحابه في الحرب

- المبحث الأول: رحمة النبي ﷺ بأصحابه في الحرب.
- المبحث الثاني: تقدير النبي ﷺ لأصحابه في الحرب وحلمه عليهم.
- المبحث الثالث: عدل النبي ﷺ مع أصحابه في الحرب ومواساته لهم.
- المبحث الرابع: تأديب النبي ﷺ أصحابه على آداب الحرب المتعلقة بهم.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

رحمة النبي ﷺ بأصحابه في الحرب

- المطلب الأول: رحمة النبي ﷺ بجنده في الحرب.
- المطلب الثاني: رحمة النبي ﷺ بذوي الجند.
- المطلب الثالث: رحمة النبي ﷺ بأصحاب الأعذار.

المطلب الأول

رحمة النبي ﷺ بجنده في الحرب

كان ﷺ بمثابة الوالد والقائد الرحيم بجنده، يشفق عليهم، ويألم لجراحهم، ويسارع لعلاجها، ويرحم ضعفاءهم، ويجبر كسر قلوبهم، ويفادي أسراهم بما يستطيع.

والحديث عن هذا الجانب في النقاط التالية:

أولاً: رحمته ﷺ بالمصابين في المعركة

١- ففي غزوة أحد (٣هـ): قال قتادة بن النعمان[1] رضي الله عنه: أهدي إلى رسول الله ﷺ قوسٌ فدفعها رسول الله ﷺ إليّ يوم أحد، فرميت بها بين يدي

---

(١) هو: قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر، الأوسي، أخو أبي سعيد الخدريّ لأمه، أمهما أنيسة بنت قيس النجارية، كنيته أبو عمرو، شهد بدرًا، وكان أول من دخل المدينة بسورة من القرآن، وهي سورة مريم. مات في خلافة عمر رضي الله عنه، فصلى عليه ونزل في قبره، عاش خمسًا وستين سنة. ر: الإصابة (٥/ ٣١٧).

رسول الله ﷺ حتى اندقت سنها، ولم أزل عن مقامي نصب وجه رسول الله ﷺ، ألقى السهام بوجهي، كلما مال سهم إلى وجه رسول الله ﷺ ميّلت وجهي ورأسي لأقي وجه رسول الله ﷺ، بلا رمي أرميه، فكان آخرها سهمًا ندرت منه حدقتي على خدي، وافترق الجمع، فأخذت حدقتي بكفي فسعيت بها في كفي إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها رسول الله ﷺ دمعت عيناه فقال: «**اللهم إن قتادة قد أوجه نبيك بوجهه، فاجعلها أحسن عينيه وأحدَّهما نظرًا**» فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظرًا[(١)].

وروى بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تفل في رجل عمرو بن معاذ[(٢)] رضي الله عنه حين قطعت رجله فبرأ[(٣)].

٢- **وفي غزوة الخندق (٥هـ)**: روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: أصيب سعد[(٤)] يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة، رماه في الأكحل[(٥)]، فضرب النبي ﷺ خيمةً في المسجد ليعوده من قريب[(٦)].

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣/ ٢٩٧) كتاب علامات النبوة، باب: رده البصر ﷺ.

(٢) هو: عمرو بن معاذ بن الجموح الأنصاري، وقيل: هو أخو سعد بن معاذ، وهو غير عمرو بن الجموح الذي استشهد في أحد. ر: الإصابة (٤/٥٦٦).

(٣) ابن حبان (٦٥٠٩) كتاب التاريخ، باب: المعجزات. قال عنه المحقق: إسناده حسن.

(٤) هو: سعد بن معاذ بن النعمان، الأنصاري، سيد الأوس، لما توفي يوم الخندق قال عنه ﷺ: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» أسلم على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه، مواقفه مشهودة، أبرزها يوم بدر. ر: الإصابة (٣/ ٧٠).

(٥) هو: عرق وسط الذراع، قال ابن حجر: « قال الخليل: هو عرق الحياة، ويقال: إن في كل عضو منه شعبة، فهو في اليد: الأكحل، وفي الظهر: الأبهر، وفي الفخذ: النسا، إذا قطع لم يرقأ الدم ». ر: فتح الباري (٧/ ٤٧٧).

(٦) البخاري (٤١٢٢) كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب.

٣- وفي غزوة خيبر (٧هـ): أصيبت ساق سلمة بن الأكوع[١] رضي الله عنه، فنفث فيها ﷺ فبرأت، فقد روى يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم، ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيت النبي ﷺ، فنفث[٢] فيها ثلاث نفثات، فما اشتكيت حتى الساعة[٣].

وعندما قال ﷺ: **«لأُعطينّ هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يدركون ليلتهم: أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع...»**[٤].

وبعد غزوة خيبر بقليل، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في سرية قوامها ثلاثون رجلاً، فيهم عبد الله بن أنيس إلى يسير بن رزام اليهودي، وكان يجمّع غطفان ليغزو بهم رسول الله ﷺ، وقتل منهم نحو ثلاثين، غير أن يسير ضرب عبد الله بن أنيس بمخرش[٥] على وجهه فشجّه مأمومة،

---

(١) هو: سلمة بن عمرو بن الأكوع، أول مشاهده الحديبية، وكان من الشجعان، ويسبق الفرس عدوًا، تحول إلى الربذة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ثم عاد إلى المدينة وتوفي فيها سنة (٧٤هـ). ر: الإصابة (٣/ ١٢٧).

(٢) النفث هو: التفل بلا ريق، قريب من النفخ. ر: لسان العرب (٢/ ١٩٥)، المصباح المنير ص(٣١٧) مادة: (نفث).

(٣) البخاري (٤٢٠٦) كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر، ابن حبان (٦٥١٠) كتاب التاريخ، باب المعجزات.

(٤) البخاري (٤٢١٠) كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر أيضًا.

(٥) المخرش: عصا معوجّة الرأس كالصولجان. ر: لسان العرب (٦/ ٢٩٣) مادة: (خرش).

فعندما قدموا على رسول الله ﷺ فبصق في شجة عبد الله بن أنيس فلم تقِحْ ولم تؤذه حتى مات[١].

هذا وأمثاله يؤكد شفقة النبي ﷺ ورحمته بمن يصاب من أصحابه في المعركة، سواء أكان بسلاح العدو، أم بمرض عارض.

ثانيًا: رحمته ﷺ بضعفة الجند

ليست قدرات الصحابة متساوية، ولا طاقاتهم متوازنة، فكان فيهم القوي والضعيف في الغزو، وكان فيهم الماشي والراكب، والسابق والمتخلف، فكان ﷺ يعطي كلاً منهم حظه من العناية والرعاية، ويولي الضعفاء والمتخلفين رحمةً خاصة. فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله يتخلف في المسير، فيزجي[٢] الضعيف، ويردف، ويدعو لهم[٣].

ثالثًا: رحمته ﷺ بمن مات في طريق الغزو

فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك (٩هـ)، فرأيت شعلةً من نار في ناحية العسكر، فاتّبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البِجادَيْن المزني[٤] قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته،

---

(١) ر: زاد المعاد (٣/ ٣٦٠)، مجمع الزوائد (٨/ ٢٩٨)، كتاب علامات النبوة، باب شفاء الجرح.

(٢) يزجي: يسوق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] أي: يسوقه برفق. ر: لسان العرب (١٤/ ٣٥٤)، المصباح المنير ص (١٣٢) مادة (زجي).

(٣) أبو داود (٢٦٣٩) كتاب الجهاد، باب: في لزوم الساقة.

(٤) سمي ذا البجادَيْن؛ لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك ويضيّقون عليه، حتى تركوه في بجاد وليس عليه غيره، والبجاد: الكساء الغليظ الجافي، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبًا منه شقّ بجاده باثنين، فائتزر بواحد، واشتمل الآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقيل له: ذو البجادين. ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٨).

وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه، وهو يقول: «**أدنيا إليّ أخاكما**» فدلياه إليه، فلما هيأه لشقّه قال: «**اللهم إني قد أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه**» قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[1].

فانظر إلى مدى رحمته ﷺ بأصحابه:

- استدعى صاحبيْه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في هذه الساعة المتأخرة من الليل للقيام بهذا الواجب الشرعي نحو صاحبهم.

- ترك عامّة أصحابه الغزاة نيامًا، وهو العالم بثواب تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، الآمر بذلك، لكنه لم يوقظهم رحمةً بهم، في هذه الغزوة البعيدة الشقّة.

- كان يباشر وضع الميت في قبره بنفسه ﷺ؛ تعبيرًا عن حبه لهذا الصحابي الجليل ورحمته به، وإن كان يكفيه أن يوقظ أحد أصحابه لذلك، أو يأذن لأحد وزيريْه.

- كان يدعو له ﷺ معبرًا عن رضائه عنه، كيف لا، وهو الذي هجر أهله والدنيا، ولحق به ﷺ.

- وانظر إلى خطابه صاحبيْه «**أدنيا إليّ أخاكما**» فهو تعبير عن منتهى الرحمة، والتذكير بأهم رابطة بين المسلمين، وهي رابطة الإيمان.

رابعًا: رحمته ﷺ بالجند المنكوبين

فقد كان ﷺ يؤانس وحشة أصحابه، ولا سيما أصحاب الظروف الخاصة منهم، فيلاطفهم، ويمازحهم، وينتهز الفرص لإكرامهم، تعويضًا لهم عما فقدوه في حياتهم.

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٧)، زاد المعاد (٣/ ٥٤٠).

فقد روى ابن إسحاق بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع (٤هـ) على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا، قال: أنخْهُ، قال: فأنخته وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع عصًا من شجرةٍ، ففعلت، فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات ثم قال: اركب، فركبت، فخرج والذي بعثه بالحق يواهق [1] ناقته مواهقةً. قال: وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قال: قلت: بل أهبه لك، قال: لا، ولكن بِعْنيه، قال: قلت: فسُمْنيه، قال: قد أخذته بدرهم، قال: قلت: لا، إذًا تغبنني يا رسول الله، قال: فبدرهمين، قال: قلت: لا، قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية. قال: فقلت: أفقد رضيت؟ قال: نعم، قلت: فهو لك، قال: قد أخذته، ثم قال: يا جابر، هل تزوجت بعد؟ قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: أثيبًا أم بكرًا؟ قال: قلت: بل ثيبًا، قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ قال: قلت: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعًا، فنكحت امرأة جامعةً، تجمع رؤوسهن فتقوم عليهن، قال: أصبت إن شاء الله، أما أنّا لو جئنا صرارًا[2] أمرنا بجزور فنحرت، فأقمنا عليها يومنا ذلك وسمعت بنا، فنفضت نمارقها[3]، قال: فقلت: يا رسول الله، ما لنا نمارق؟ قال: إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيسًا... وعندما وصل المدينة ردّ إليه ﷺ جمله قائلاً: خذ برأس

---

(١) أي: يسايرها، تقول: واهقه: سار مثل سيره. ر: لسان العرب (١٠/ ٣٨٥).

(٢) مكان قرب المدينة.

(٣) النمارق: هي الوسائد. ر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٣)، سورة الغاشية.

جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال له: اذهب بجابر فأعطه أوقية، قال: فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئًا يسيرًا[١].

فقد أوردنا هذه القصة بطولها؛ لأنها تعطي صورة كاملة ودقيقة عن خلق رسول الله ﷺ مع أصحابه، وما انطوى عليه خلقه الكريم من لطف المعاشرة، ورقّة الحديث، وفكاهة في المحاورة، ومحبة شديدة لأصحابه. فقد كان ﷺ متأثرًا بالمحنة التي طافت على بيت جابر بن عبد الله، فقد استشهد والده في أحد، فقام جابر - وهو أكبر أولاده - على شأن الأسرة، ورعاية الأطفال الكثيرين الذين خلفهم له والده من ورائه، وهو على ذلك رقيق الحال، ليس له نصيب وافر من الدنيا.

فلقد كان من عادته ﷺ إذا سار مع أصحابه في الغزو أن يتفقدهم، ويطمئن عليهم بين كل فترة وأخرى، لكنه هذه المرة انتهزها فرصة، وقد استشعر حال جابر وظروفه العامة من خلال جمله الضعيف المتخلف عن الركب، والذي لا يملك غيره، فراح يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكه. عرض عليه ﷺ شراء بعيره، وهو إنما يريد أن يجعل من ذلك ذريعة ومناسبة لإكرامه ومساعدته على وضعه الذي هو فيه، ثم سأله عن الزوجة والبيت بأسلوب فكه رقيق، وراح يطمئن الزوج الحديث العهد بالزواج، المشتاق إلى أهله عادة، أنهم إذا وصلوا قريبًا من المدينة أقاموا ساعات هناك، حتى يتسامع أهل المدينة بمقدمهم، فتسمع زوجته، فتصلح له من شأنها، وتهيئ له البيت بزينته ونمارقه!.

إنها والله صورة رائعة عن لطف معشره، وأنس حديثه، والفكاهة الحلوة في محاورته لأصحابه ﷺ[٢].

---

(١) ر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٥ - ١٠٦)، ورواه البخاري مختصرًا (٢٨٦١) كتاب الجهاد والسير، باب: من ضرب دابة غيره في الغزو.

(٢) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٢١٢ - ٢١٣).

خامسًا: رحمته ﷺ بأسرى المسلمين

الأسير: الأخيذ، ويطلق على كل محبوس[١]، وإذا أطلق أريد به أسير الحرب. ولقد حرص ﷺ على فكاك الأسير، وحثّ عليه؛ لما له من معنًى في نفسه، وهو عودة الحرية والحياة إليه.

فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«فكّوا العاني - الأسير -، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»**[٢].

قال ابن بطال: «فكاك الأسير واجب على الكفاية، وبه قال الجمهور، وقال إسحاق بن راهويه: من بيت المال»[٣]. وكان إذا لم يجد ﷺ ما يفك به الأسير يسأل أصحابه ويلحّ عليهم؛ ليساهموا في استخلاص إخوانهم.

فقد روى سلمة[٤] أن أبا بكر رضي الله عنه نفله[٥] جارية، هي من أحسن العرب، قال: فقدمنا المدينة، وما كشفت لها ثوبًا، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: يا سلمة، هب لي المرأة، فقلت: يا رسول الله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوبًا، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة، لله أبوك[٦]! فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوبًا، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناسًا من المسلمين كانوا أسرى بمكة[٧].

---

(١) ر: لسان العرب (٤/ ١٩)، المصباح المنير ص (١٣) مادة: (أسر).

(٢) البخاري (٣٠٤٦) كتاب الجهاد والسير، باب: فكاك الأسير.

(٣) ر: فتح الباري (٦/ ١٩٣).

(٤) هو ابن الأكوع رضي الله عنه.

(٥) أي: أعطاه عطاء زائدًا عن حقه في الغنيمة؛ لبلائه وشجاعته.

(٦) كلمة تقال للمدح والحثّ على الشيء، كقولك: لله درّك.

(٧) مسلم (١٧٥٥) كتاب الجهاد والسير، باب: التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى، أبو داود (٢٦٩٧) كتاب الجهاد، باب: الرخصة في المدركين يفرّق بينهم.

فانظر إلى حرصه ﷺ على فداء الأسرى من أصحابه، حتى إذا لم يجد ما يفدي به، ألحّ على سلمة، فوهبه الجارية، فأرسلها مباشرة إلى مكة فداءً لأسرى المسلمين.

المطلب الثاني

رحمة النبي ﷺ بذوي الجند

والحديث عن هذا يتناول الرحمة بوالدي المقاتل، وبأسر الشهداء، وبأزواج الغزاة.

أولاً: رحمته ﷺ بوالدي المقاتل

فلقد كان ﷺ يراعي مشاعر والدي المقاتل، فكان لا يأذن لأحد من أصحابه في الجهاد ما لم يأذن والداه، وذلك رحمة بهما وشفقة. فقد روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌّ والداك؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما جاهد**»[(١)]. قال ابن حجر: «قال جمهور العلماء: يحرم الجهاد إذا منع الأبوان أو أحدهما، بشرط أن يكونا مسلمين؛ لأن برّهما فرض عين عليه، والجهاد فرض كفاية، فإذا تعيّن الجهاد فلا إذن »[(٢)].

ومن رحمته ﷺ في ذلك: الرّفق بعبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، إذ لم يأذن لولده بقتله، رحمة به، وذلك عندما تكلم على النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق (٥هـ) وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، وقصد بذلك النبي ﷺ وأصحابه، وكثر بذلك اللغط، فجاء ولده عبد الله رضي الله عنه

---

(١) البخاري (٣٠٠٤) كتاب الجهاد والسير، باب: الجهاد بإذن الوالدين، مسلم (٢٥٤٩) كتاب البر والصلة والصدقة، باب: برّ الوالدين وأنهما أحق به.

(٢) ر: فتح الباري (٦/ ١٦٣)، مسلم شرح النووي (١٦/ ٣٣٩).

إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه - وذلك لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما سمع مقولته قال لرسول الله ﷺ: مُرْ عبّاد بن بشر فليقتله [(١)] - فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار ! فقال رسول الله ﷺ: «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**» [(٢)]. ولم يأذن له ﷺ بقتل والده.

وقال ابن حجر: «ووقع في مرسل عكرمة عند الطبري: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي قال للنبي ﷺ: إن والدي يؤذي الله ورسوله، فذرني حتى أقتله، قال: «**لا تقتل أباك**»»[(٣)].

والخلاصة أن رحمته ﷺ تجاوزت والد المقاتل المؤمن إلى الكافر، وأبقت على صلة الأبوة ولم تقطعها، وذاك منتهى الرحمة والشفقة.

ثانيًا: رحمته ﷺ بأسر الشهداء

كان رسول الله ﷺ يقدر للشهداء قدرهم، فيولي أسرهم عناية خاصة، كيف لا وقد ترك هؤلاء الدنيا وما فيها من أهل ومال ومتاع، وباعوا نفوسهم لله تعالى، والصورتان الآتيتان تؤكدان ذلك:

---

(١) ر: البداية والنهاية (٤/ ١٨٧).

(٢) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣)، البداية والنهاية (٤/ ١٨٨ - ١٨٩).

(٣) ر: فتح الباري (٨/ ٥١٨)، تفسير سورة المنافقين.

١- فقد روى ابن إسحاق عن أسماء بنت عميس[١] قالت: دبغتُ أربعين منًّا، وعجنتُ عجيني، وغسلتُ بنيّ ودهنتهم ونظفتهم، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «**ائتيني ببني جعفر**» قالت: فأتيته بهم، فشمّهم وذرفت عيناه ! فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيءٌ؟ قال: «**نعم، أصيب هذا اليوم**»[٢]. قالت: فقمت أصيح، واجتمعت إليَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: «**لا تُغْفِلوا آل جعفر، من أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم**»[٣].

فانظر إلى مظاهر رحمته ﷺ بآل جعفر، من شمّ أبنائه وتقبيلهم مع البكاء، إلى وصية أهله ﷺ بأن يصنعوا لهم طعامًا. وكأنه استحضر ﷺ في نفسه جهاد جعفر ودعوته من بدايتها، منذ أن وقف خطيبًا بين يدي النجاشي، مبيِّنًا صدق دعوة النبي ﷺ، وكيف عانى وأسرته السنين الطويلة في الحبشة، وما إن وصل المدينة يوم خيبر (٧هـ) رشّحه ﷺ في العام الذي يليه للشهادة في مؤتة (٨هـ). فكل حياته دعوة وجهاد رضي الله عنه، فكأنه استجمع ﷺ كل هذه المعاني في ابن عمه، ففاضت عيناه بالدمع.

---

(١) هاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر، ولما قتل في مؤتة تزوجها بعده أبو بكر رضي الله عنه، وبعد وفاته تزوجها علي رضي الله عنه، ومن اللطائف: أن تفاخر ولداها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر، فقال كل منهما: أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك، فقال علي: اقضي بينهما، فقالت: ما رأيت شابًا خيرًا من جعفر، وما رأيت كهلاً خيرًا من أبي بكر، فقال لها علي: فما أبقيت لنا؟!. ر: الإصابة (٨/ ١٤).

(٢) وذلك يوم مؤتة، عندما أخذ ﷺ يصف المعركة، ويخبر عن تفاصيل حمل الراية، واستشهاد حَمَلَتِها الثلاثة رضوان الله عليهم.

(٣) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٠ - ٣٨١).

٢- وأما الصورة الثانية فهي رحمته بأسرة عبد الله بن حرام[١]، والد جابر، فقد استشهد في أحد وترك لجابر بنيات صغار، وذهب وذمَّته مشغولة بدين كثير، أوصاه بتبرئتها، قال جابر: لما حضر أحد، دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك، غير نفس رسول الله ﷺ، وإنَّ عليَّ دينًا فاقض، واستوص بأخواتك خيرًا، فأصبحنا، فكان أول قتيل...[٢]. فقد كانت رحمة النبي ﷺ تظلّ هذه الأسرة، أسرة الشهيد[٣]، فعن الشعبي قال: حدثني جابر رضي الله عنه أن أباه استشهد يوم أحد، وترك عليه دينًا، وست بنيّات، - وفي رواية: تسع بنات كن لي تسع أخوات[٤] - فلما حضر جذاذ النخل قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أحد، وترك دينًا كثيرًا، وإني أحبّ أن يراك الغرماء، فقال: اذهب فبَيْدر كل تمر على ناحية، ففعلت، ثم دعوته، فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بي تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون، أطاف حول أعظمها بيدرًا ثلاث مرات، ثم جلس عليه، ثم قال: ادع لك أصحابك، فما زال يكيل حتى أدى الله عن والدي أمانته، وأنا أرضى أن يؤدّي الله أمانة والدي، ولا أرجع إلى أخواتي

---

(١) وهو الذي حاول إقناع عبد الله بن أبي بن سلول، عندما انخذل بثلث الجيش في أحد، ولكن دونما جدوى، فأخذ يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم وسبّهم. ر: ابن هشام (٢/ ٦٤)، زاد المعاد (٣/ ١٩٤). فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤٠٣)، سورة آل عمران.

(٢) البخاري (١٣٥١) كتاب الجنائز، باب: هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلة.

(٣) ر: فقرة: رحمته ﷺ بالجند المنكوبين، السابقة.

(٤) البخاري (٤٠٥٢) كتاب المغازي، باب: غزوة أحد.

بتمرة، فسلم الله البيادر كلها، حتى أني أنظر إلى البيدر الذي كان عليه النبي ﷺ كأنه لم ينقص تمرة واحدة[١].

فانظر إلى رحمته ﷺ بهذه الأسرة:

- فقد أرشد جابر إلى تجميع التمر بطريقة معينة؛ لحكمة إلهية.
- ثم جاء بنفسه الشريفة ﷺ فأخذ يدور حول بيدر التمر، ويدعو ويبارك.
- ثم قام بيده المباركة يكيل، ويوفي الغرماء، ويبرئ ذمة الشهيد.

ما أعظمه من اهتمام، وما أعظمه من حرصٍ ورحمة بهذه الأسرة الجريحة.

ومن جهة ثانية، فقد كان ﷺ يحاول إدخال السرور بطريقة أو بأخرى على قلب جابر، جبرًا لكسر قلبه بفقده والده، ولظروفه الصعبة المحيطة به، قال جابر: لقيني النبي ﷺ فقال: «**ما لي أراك منكسرًا؟**» قلت: يا رسول الله، استشهد أبي بأحد، وترك دينًا وعيالاً، قال: «**ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟**» قال: بلى يا رسول الله، قال: «**ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجابه وأحيا الله أباك فكلمه كفاحًا، فقال: تمنّ عليّ أعطيك، قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب تبارك وتعالى: وقد سبق مني أنهم لا يرجعون**»[٢]. وكذلك قال له ﷺ حين استشهد، وكان يكشف الثوب عن وجهه ويبكي: «**لا تبكه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع**»[٣].

ثالثًا: رحمته ﷺ بأزواج الغزاة

إذا قدم الغازي أهله فجأة، ربما وجدهم على غير أهبة واستعداد لاستقباله، من النظافة والتزين ونحوه، فيكون ذلك سبب النفرة والتباعد، لذا كان ﷺ إذا قدم من الغزو يقيم يومًا قبيل المدينة، حتى تتأهب النساء لملاقاة الأزواج، كقوله ﷺ

---

(١) البخاري (٤٠٥٣) كتاب المغازي، باب: غزوة أحد.

(٢) الترمذي (٤٠٩٧) كتاب التفسير، سورة آل عمران. وقال: حديث حسن غريب.

(٣) البخاري (٤٠٨٠) كتاب المغازي، باب: من قتل من المسلمين يوم أحد.

لجابر حين رجوعهم من غزوة ذات الرقاع (٤هـ): «**أما أنّا لو جئنا صرارًا**[١]، **أمرنا بجزور فنحرت، فأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا – أي زوجة جابر – فنفضت نمارقها...**»[٢].

ولهذا كان النبي ﷺ ينهى أن يطرق [٣] الرجل أهله، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ من غزوةٍ فقال: «**لا تطرقوا النساء**»، وأرسل من يؤذن الناس أنهم قادمون[٤].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فلما قدمنا المدينة، ذهبنا لندخل فقال: «**أمهلوا حتى ندخل ليلاً، أي: عشاءً، كي تستحدّ المغيّبة**[٥]، **وتمتشط الشعثة**»[٦]. فقد بيّن ﷺ السبب، وهو وصول الخبر للأزواج، فيستعدون لاستقبال الغزاة، فيكون ذلك خيرًا وبركة، من حسن اللقاء، وفرح كلٌ منهما بالآخر، فالزوجة تفرح بوصول زوجها من الغزو سالمًا فتستعد له، والزوج يفرح عندما يجد أهله على أحسن حال، من التزين والتطيب، وهذا ما رمى إليه ﷺ من التريّث في دخول المدينة، ونهى عن الدخول فجأة.

قال ابن حجر: «وفي الحديث: الحثّ على التوادّ والتحابّ، خصوصًا بين الزوجين؛ لأن الشارع راعى ذلك بين الزوجين، مع اطلاع كل منهما على ما

---

(١) هو مكان قريب من المدينة، وقد سبق ذكره.

(٢) ر: البداية والنهاية (٤/ ١٠٦).

(٣) **الطروق:** هو المجيء بالليل من سفر أو غيره على غفلة. ر: فتح الباري (٩/ ٢٥١).

(٤) ر: فتح الباري (٩/ ٢٥٢)، وعزاه الحافظ ابن حجر لابن خزيمة.

(٥) قال النووي: «ومعنى: تستحد المغيّبة: أي: تزيل شعر عانتها، والمغيّبة: التي غاب زوجها، والاستحداد: استفعال من استعمال الحديدة، وهي الموسى» ر: شرح صحيح مسلم (١٣/ ٧٥ – ٧٦).

(٦) البخاري (٥٢٤٥) كتاب النكاح، باب: طلب الولد، مسلم (٧١٥) كتاب الإمارة، باب: كراهة الطروق، وهو الدخول ليلاً لمن ورد من سفر، واللفظ له.

جرت العادة بستره، حتى إن كل واحد منهما لا يخفى عنه من عيوب الآخر شيء في الغالب، ومع ذلك فنهى عن الطروق؛ لئلا يطلع على ما تنفر نفسه منه»[(١)].

المطلب الثالث

رحمة النبي ﷺ بأصحاب الأعذار

وهؤلاء: هم النساء والصبيان، وأولو الضرر من الرجال، الذين رحمتهم شريعته ﷺ، بأن أعفتهم من الجهاد.

أولاً: رحمته ﷺ بالنساء والصبيان

فقد أعفتهم شريعته ﷺ من فريضة الجهاد، وذلك رحمة بهم؛ إذ إن الجهاد صبر ومصابرة ومشاقّ، ولا يتناسب هذا وحال هؤلاء.

أما النساء: فصحيح أنهن شاركن في بعض الغزوات، لكنه على سبيل التطوع، لا الإلزام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلم تكن مشاركتهن القتال، إنما مداواة الجرحى، وسقي العطاش، وردّ القتلى، ونحو ذلك. فلم يثبت في السنة المطهرة وسيرته الشريفة أنه ﷺ استنفرهنّ للقتال، وما ذلك إلا رحمة بهذا المخلوق الضعيف كما ذكرنا. قال الشاعر: [البحر الخفيف]

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيول

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ فقال: «**لكنّ أفضل الجهاد: حج مبرور**»[(٢)].

---

(١) ر: فتح الباري (٩/ ٢٥٢).

(٢) البخاري (٢٧٨٤) كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير.

وعن الربيّع بنت معوّذ[١] قالت: «**كنا مع النبي ﷺ نسقي ونداوي الجرحى، ونردّ القتلى إلى المدينة**»[٢]. فهي مهمة إسعاف وتخلية للقتلى من أرض المعركة، لا أكثر.

قال ابن حجر: « ولم أرَ في شيء من ذلك - أي من هذه الأحاديث - التصريح بأنهنّ قاتلن، ولأجل ذلك قال ابن المنيّر: [بوّب - أي البخاري - على قتالهن، وليس هو في الحديث، فإما أن يريد أن إعانتهن للغزاة غزو، وإما أن يريد أنهنّ ما ثبتن لسقي الجرحى ونحو ذلك إلا وهنّ بصدد أن يدافعن عن أنفسهن، وهو الغالب]... ويحتمل أن يكون غرض البخاري بالترجمة أن يبين أنهن لا يقاتلن، وإن خرجن للغزو »[٣].

٢- وأما الصبيان: فكان ﷺ يردّهم، رغم حرصهم الشديد على المشاركة في القتال، رحمة بهم وبأهلهم، وذلك إلى أن يبلغوا سن الرشد.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه**»[٤].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «**استُصغرت أنا وابن عمر يوم بدر...**»[٥].

---

(١) هي بنت معوّذ بن عفراء، الأنصارية النجارية، كانت من المبايعات تحت الشجرة، زوجها إياس بن البكير، روت بعض الأحاديث عن النبي ﷺ، سألها أحدهم: صفي لي رسول الله ﷺ فقالت: يا بني، لو رأيته رأيت الشمس طالعة. ر: الإصابة (٨/ ١٣٢).

(٢) البخاري (٢٨٨٢) كتاب الجهاد والسير، باب: مداواة النساء الجرحى في الغزو.

(٣) ر: فتح الباري (٦/ ٩٢).

(٤) البخاري (٤٠٩٧) كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق، وهي الأحزاب.

(٥) البخاري (٣٩٥٦) كتاب المغازي، باب: عدة أهل بدر.

قال ابن حجر: « ومراد البراء أن ذلك وقع عند حضور القتال، فعرض من يقاتل، فردّ من لم يبلغ، وكانت تلك عادة النبي ﷺ في المواطن »[(١)].

والخلاصة: أن لا جهاد على امرأة وصبي، وإن ثبت مشاركتهم في بعض الغزوات فهو على سبيل التطوع لا الوجوب، وفي الإسعاف والسقاية والتخلية لا غير.

قال النووي: «ولا جهاد على صبيّ ومجنون وامرأة»[(٢)].

ثانيًا: رحمته ﷺ بأولي الضرر

لقد تحرَّج أصحاب الأعذار من عدم خروجهم مع رسول الله ﷺ للغزو والجهاد، واعتبروا ذلك منقصةً في حقهم، فهم ينظرون إلى الجهاد أنه سبيل عزٍّ وكرامة، وتعبير صادق عن الإيمان، وقد حرموا منه، وهؤلاء كابن أم مكتوم[(٣)]، الكفيف، وغيره من أصحاب الأعذار، ومما آلمهم نزول قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، فازدادوا همًّا إلى همٍّ، واشتدت كربتهم، فجاءتهم الرخصة من الله تعالى، وأظلتهم رحمة النبي ﷺ.

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة، فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي، فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ، ثم سُرِّي عنه فقال: اكتب، فكتبت في كتف: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٩٥]، فقام ابن

---

(١) ر: فتح الباري (٧/ ٣٣٩).

(٢) ر: المنهاج مع مغني المحتاج (٤/ ٢١٦).

(٣) هو: عمرو – وقيل: عبد الله – بن أم مكتوم القرشي، أسلم قديمًا، وهاجر إلى المدينة، وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة في عامة غزواته، يصلي بالناس، قيل: استخلفه بثلاث عشرة غزوة، كان ابن خالة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها. ر: الإصابة (٤/ ٤٩٤).

أم مكتوم وكان رجلاً أعمى، لما سمع فضيلة المجاهدين، فقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيتْ رسول الله ﷺ السكينة، فوقعت فخذه على فخذي، ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى، ثم سُرِّي عن رسول الله ﷺ فقال: «اقرأ يا زيد» فقرأت ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ الآية كلها، قال زيد: فأنزلها الله وحدها، فألحقتها، والذي نفسي بيده، لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع كتف[1]. فكان ذلك رحمةً بأصحاب الأعذار، الذين قال عنهم ﷺ عندما قفل عن بعض غزواته: «**إن بالمدينة لرجالاً، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض**» وفي رواية: «**حبسهم العذر**»[2].

قال القرطبي: «فهذا يقتضي أن صاحب العذر يعطى أجر الغازي، فقيل: يحتمل أن يكون أجره مساويًا، وفي فضل الله متسع، وثوابه فضل لا استحقاق، فيثيب على النية الصادقة ما لا يثيب على الفعل، وقيل: يُعطى أجره من غير تضعيف، فيفضله الغازي بالتضعيف للمباشرة والله أعلم، قلت: والقول الأول أصح إن شاء الله؛ للحديث الصحيح في ذلك: إن بالمدينة رجالاً...»[3].

وعلى كل حال، فإن في هذه الآية الكريمة من الرحمة بأصحاب الأعذار ما لا يخفى، فقد كانت تطييبًا لنفوسهم، وجبرًا لكسر قلوبهم.

---

(١) البخاري (٢٨٣١) كتاب الجهاد والسير، باب: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ...﴾، مسلم (١٨٩٨) كتاب الإمارة، باب: سقوط فرض الجهاد عن المعذورين، أبو داود (٢٥٠٧) كتاب الجهاد، باب: الرخصة في القعود من العذر، واللفظ له.

(٢) البخاري (٢٨٣٩) كتاب الجهاد والسير، باب: من حبسه العذر عن الغزو، مسلم (١٩١١) كتاب الإمارة، باب: ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، واللفظ له.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٥٧)، سورة النساء.

المبحث الثاني

تقدير النبي ﷺ لأصحابه في الحرب وحلمه عليهم

- المطلب الأول: تقدير النبي ﷺ لأصحابه في الحرب.
- المطلب الثاني: حلم النبي ﷺ على أصحابه في الحرب.

المطلب الأول

تقدير النبي ﷺ لأصحابه في الحرب

التقدير هو: تعظيم الشأن، تقول: قدرت الرجل: أي عظمت شأنه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: ما عظموه حق تعظيمه، وتقول لفلان قدر: أي شأن وكرامة[(١)]. وعكسه الاستخفاف، وهو عدم معرفة قدر الآخرين.

والحديث عن ذلك من خلال: استشارة الأصحاب في الأمور الهامة، واستئذانهم بردّ الغنائم إلى أهلها، والحرص على تصفية قلوبهم، وإمضاء أمانهم وجوارهم.

---

(١) ر: مختار الصحاح ص (٥٢٣) مادة: (قدر)، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٤٥٤)، سورة الأنعام.

أولاً: استشارته ﷺ لأصحابه

وذلك تنفيذًا لأمر ربه سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فقد كان ﷺ كثير المشورة لأصحابه، وخاصة في أمور الحروب، وإن كان ﷺ هو المستغن عن رأيهم جميعًا، وهو المؤيَّد بالوحي من عند الله تعالى، إنما يفعل ذلك ليعلمهم أهمية الشورى، وليعبر لهم عن تقديره لهم، واعتباره لشأنهم.

قال القرطبي: «واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يشاور فيه أصحابه، فقالت طائفة: ذلك في مكايد الحروب، وعند لقاء العدو، وتطييبًا لنفوسهم ورفعًا لأقدارهم، وتألفًا على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه»[(١)].

ولقد كان ﷺ يستشير أصحابه في معظم الغزوات، والأدلة على ذلك كثيرة، نذكر أبرزها:

١- ففي غزوة بدر (٢هـ): طلب الشورى ﷺ في ثلاثة أمور: في القتال، وفي المنزل، وفي شأن الأسرى.

أ) **أما في القتال**: فلم يستغلَّ النبي ﷺ محبة الأنصار له، وتوقيرهم إياه، فيدفع بهم إلى ساحة القتال، دون رضًا وعلى غير ميعاد، إنما قال: «**أشيروا علي أيها الناس**» ويريد بذلك الأنصار لأمرين: الأول: أنهم كانوا غالبية الجيش[(٢)]، والأمر الثاني: أنهم بايعوه في العقبة على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم في المدينة لا خارجها، ويؤكد ذلك قولهم: «**يا رسول الله، إنا براء من**

---

(١) ر: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٣٨٠)، سورة آل عمران.

(٢) فقد روى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم بدر نيّفًا وستين، والأنصار نيّفًا وأربعين ومائتين» رواه البخاري (٣٩٥٦) كتاب المغازي، باب: عدة أصحاب بدر.

ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا»[(١)]. فعندما أعلنوا استعدادهم وتحمسهم للقتال معه ﷺ اطمأن واستبشر.

ب) **وأما في المنزل**: فقد سار رسول الله ﷺ حتى نزل عشيًا أدنى ماء من مياه بدر، فقال: «**أشيروا عليّ في المنزل**» فقال الحباب بن المنذر[(٢)]: يا رسول الله، أنا عالم بها وبقُلُبها[(٣)]، إن رأيت أن نسير إلى قُلُبٍ قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها، ونسبق القوم إليها، ونغوّر ما سواها من المياه[(٤)]. فأعجب ﷺ برأيه، وسماه (ذا الرأي) وتمّ تنفيذ ذلك، وكان هذا من عوامل النصر في المعركة.

ج) **وأما في شأن الأسرى**: فقد استشار أصحابه في شأنهم، وكان من رأي عمر رضي الله عنهم قتلهم، ومن رأي أبي بكر رضي الله عنهم مفاداتهم، فمال إلى هذا، وكان الفداء[(٥)].

---

(١) ر: البداية والنهاية (٣/ ٢٩٩).

(٢) هو: الحباب بن المنذر بن الجموح، الأنصاري الخزرجي، كنيته أبو عمر، يقول: أشرت على رسول الله ﷺ برأيين: في غزوة بدر، وخيّر عند موته فاستشار أصحابه فقالوا: تعيش معنا، فاستشارني فقلت: يا رسول الله، حيث اختارك ربك، فقبل ذلك منّي، توفي في خلافة عمر رضي الله عنه. ر: الإصابة (٢/ ٩).

(٣) **القُلُب**: جمع قليب، وهو البئر قبل أن تطوى - تبنى جوانبها - وقيل: هي البئر العادية القديمة. ر: لسان العرب (١/ ١٨٩) مادة: (قلب).

(٤) ر: زاد المعاد (٣/ ١٧٥).

(٥) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٣٨ - ٣٤٢).

٢- **وفي أحد (٣هـ)**: كان رأيه ﷺ وكبار القوم ألا يخرجوا من المدينة بل يتصدون للعدو داخلها في الأزقّة، والنساء من على ظهر البيوت، وكان رأي الأكثرية الخروج للملاقاة خارج المدينة، ومعظمهم من الشباب، الذين فاتهم شرف المشاركة في بدر، فنزل ﷺ على رأيهم، اتباعًا لقواعد الشورى[(١)].

٣- **وفي غزوة الخندق (٥هـ)**: استشار أصحابه ﷺ فأشار سلمان الفارسي[(٢)] بحفر الخندق، وكان ذلك[(٣)].

وهكذا في سائر غزواته، فقلما تخلو واحدة منها من مشورةٍ لأصحابه ﷺ، وذلك تقديرًا واحترامًا لآرائهم.

ثانيًا: استئذانه ﷺ أصحابه في الغنائم والمنّ على الأسرى

١- **أما الغنائم**: فإن النبي ﷺ كان يستأذن أصحابه بردّها لأنهم ملكوها[(٤)]، أو يستأذنهم بإشراك من لم يكن معهم في المعركة، وهذان الأمران حصلا له ﷺ في غزوتي خيبر وحنين.

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣)، البداية والنهاية (٤/ ١٦- ١٧).

(٢) ويقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير، أصله من رامهرمز، وقيل: من أصبهان، وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث، فخرج في طلب ذلك، فأسر وبيع بالمدينة، أول مشاهده غزوة الخندق، وشهد بقية المشاهد، وفتوح العراق، وولي المدائن، عاش كثيرًا، واختلف في عمره: فمن قال: مائتان وخمسون، ومن قال: ثلاثمائة وخمسون سنة ! توفي سنة ست وثلاثين للهجرة. ر: الإصابة (٣/ ١١٩).

(٣) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٢٢٥).

(٤) وذلك على كلا القولين، فمن قال: تملك الغنائم بالاستيلاء، ومن قال: تملك بالقسمة. وكلا الأمرين حاصل.

أ) **ففي خيبر (٧هـ)**: وصلت سفينة المهاجرين من الحبشة بعد قسمة الغنائم، وعلى هذا فهم لا يستحقون منها شيئًا؛ لأنهم لم يحضروا المعركة[١]، ولكن النبي ﷺ قسم لهم تكريمًا بعد استئذان أصحابه[٢].

ب) **وفي غزوة حنين (٨هـ)**: قدم عليه ﷺ وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«معي ما ترَوْن، وأحبُّ الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السّبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم – وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف – فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإنّا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيّب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيّبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا»**[٣].

---

(١) قال ابن قدامة: «وجملة ذلك: أن الغنيمة لمن حضر الموقعة، فمن تجدد بعد ذلك من مدد يلحق بالمسلمين، أو أسير ينفلت من الكفار فيلحق بجيش المسلمين، أو كافر يسلم، فلا حق لهم فيها». ر: المغني (١٠/ ٤٥٥).

(٢) ر: زاد المعاد (٣/ ٣٤٢).

(٣) البخاري (٤٣١٨) كتاب المغازي، باب: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ...﴾ سيرة ابن هشام (٢/ ٤٨٩)، البداية والنهاية (٤/ ٤١٠)، زاد المعاد (٣/ ٤٧٦).

فقد حرص ﷺ على أمرين اثنين:

الأول: تأليف قلوب هوازن، وهم الذين أسلموا حديثًا، فعزّ عليه أن يردّهم خائبين.

الثاني: تطييب نفوس أصحابه بردّ الغنائم، بعد أن تملكوها، فعرض عليهم ﷺ الردّ بأسلوب لطيف، فقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار كذلك، إلا ما كان من بعض المؤلفة قلوبهم، الذين أسلموا حديثًا[(١)]، ومع ذلك فلم يكتف ﷺ بهذه الصيحات الجماعية المرتفعة، بل أصرّ على أن يعلم أمر هذا الرضا، ويستوثق منه بواسطة السماع من كل شخص بذاته، أو السماع من عرفائهم[(٢)]، وعندما شعر ﷺ أن ثمة معارضات قال: «**من تمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض، من أول فيء نصيبه**» فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم[(٣)].

فانظر كيف أرضى ﷺ الطرفين بأسلوبه الرفيع، وأدبه الجمّ، وكيف استطاع بحكمته أن يعيد باقي السّبي إلى أهله، عندما وعد هؤلاء المتمسكين بحقهم بأضعاف ذلك في غزوات قادمة.

---

(١) عندما قال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله، قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٨٩)، زاد المعاد (٣/ ٤٧٦)، فتح الباري (٧/ ٦٢٩).

(٢) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٣٠٦).

(٣) ر: فتح الباري (٧/ ٦٢٩).

٢- وأما استئذانه ﷺ في المن على الأسير: فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم - أي يوم بدر - بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ رقّة شديدة وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها**» فقالوا: نعم[(١)].

فانظر إلى عظيم أدبه، واحترامه وتقديره لأصحابه ﷺ إذ يقول: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها**» وهو زوج ابنته، والقلادة حركت في نفسه شجون العهد القديم مع السيدة خديجة رضي الله عنها، ومع ذلك يستأذن ﷺ دون افتئات أو تطاول على حق أصحابه ومصلحة المسلمين.

ثالثًا: حرصه ﷺ على تصفية قلوب أصحابه

لقد أكرم الله المسلمين يوم حنين بغنائم كثيرة، ما حصلوا على مثلها من قبل: ستة آلاف من السّبي، وأربعة وعشرون ألفًا من الإبل، وأربعون ألفًا من الشياه، وأربعة آلاف أوقية من الفضة !.

ولقد شرع النبي ﷺ بتقسيمها، وأعطى المهاجرين جميعًا، وأغدق على المؤلفة قلوبهم[(٢)]، ممن أسلم حديثًا، كأبي سفيان، وحكيم بن حزام، والنضر بن الحارث

---

(١) أبو داود (٢٦٩٢) كتاب الجهاد، باب: في فداء الأسير بالمال.

(٢) قال القرطبي فيهم: « اختلف في صفتهم: فقيل: هم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام ... وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر، ولم تستيقن قلوبهم، فيعطون ليتمكن الإسلام في صدورهم، وقيل: قوم من عظماء المشركين أسلموا ولهم أتباع، يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام، قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها: الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء، فكأنه ضرب من الجهاد ». ر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٦٢)، سورة التوبة.

وغيرهم، وممن لم يسلم بعد، كصفوان بن أمية، وأعطاهم بسخاء، عطاء من لا يخشى الفقر، كما عبّر عنه صفوان، ولم يعط الأنصار شيئًا، فوجدوا في أنفسهم، وقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم ! فسمع بذلك النبي ﷺ، فجمعهم في خيمة، ثم حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟ قال: كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن. قال: لو شئتم لقلتم: جئتنا كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعار، والناس دِثار**[(١)]، **إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[(٢)].

وفي رواية: «**أما الله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شِعبًا لسلكت شِعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْمًا وحظًّا**»[(٣)].

---

(١) **الشِعار**: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد، **والدِثار**: الثوب الخفيف فوقه، وهي استعارة لطيفة، لفرط قربهم منه، واراد أيضًا أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم. ر: فتح الباري (٧/ ٦٤٩).

(٢) البخاري (٤٣٣٠) كتاب المغازي، باب غزوة الطائف.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٩)، زاد المعاد (٣/ ٤٧٣ - ٤٧٤)، البداية والنهاية (٤/ ٤١٥).

فانظر إلى أدبه الرفيع ﷺ، وتقديره للأنصار، والمسارعة إلى استخراج شوائب نفوسهم، وتصفية قلوبهم، كيف لا وهو الحريص عليهم أكثر من أنفسهم ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأحزاب: ٦]، فما هم إلا بشر، ليسوا معصومين، وربما نزغ الشيطان في نفوسهم، طلبًا للدنيا، فإنه موقف صعب وثقيل على النفوس أمام هذه الغنائم الكثيرة، فيُعطى منها - في نظرهم - من لا يستحقها، وهم المجاهدون الأشداء لا يُعطَوْن!! إنه موقف عظيم حقًا. فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن سارع إلى تطهير هذه النفوس، كيف لا وهو القائل: «**إن الشيطان ليجري من الإنسان مجرى الدم**»[1]. فلقد أراد الشيطان أن يصور لهم أن النبي ﷺ قد أدركته محبةُ قومه وبني وطنه، ونسي الأنصار، الذين آووه ونصروه ! وأراد أن يبث في نفوس جماعة منهم معنى النقد على السياسة التي اتبعها النبي ﷺ في توزيع الغنائم، فكان هذا الخطاب الذي ألقاه ﷺ جوابًا على هذه الوساوس؛ ليفيض بمعاني الرّقة والذوق الرفيع، ومشاعر المحبة الصادقة الشديدة للأنصار.

يقول الدكتور البوطي: «عُدْ إلى خطابه هذا فتأمله، فسترى أنه قد ضمنه أدق خفقات قلبه، وألطف إحساساته ! ولقد لامست هذه الرقة والخفقات مشاعر الأنصار فهزتها هزًّا، ونفضت منها ما كان قد علق بها من الوساوس والهواجس، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحًا بنبيّهم ﷺ وابتهاجًا بقسمتهم ونصيبهم، فما المال، وما الشياه والغنائم في جنب حبيبهم رسول الله ﷺ؛ إذ يعودون به، ويعود بهم إلى ديارهم؛ ليكون المحيا والممات فيما بينهم؟ وأي برهان منه عليه الصلاة والسلام

---

(١) البخاري (٣٢٨١) كتاب بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، مسلم (٢١٧٥) كتاب السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجة أو محرمًا له أن يقول: هذه فلانة؛ ليدفع ظن السوء به.

ينطق بالوفاء وخالص المحبة والودّ أكثر من هذا، أي: أكثر من أن يدع وطنه ومسقط رأسه ليقضي بقية أيامه فيما بينهم»[(١)].

قارن بين تقديره ﷺ للأنصار، وهم جزء من جيشه المبارك، وحرصه على تصفية نفوسهم، ورفع معنوياتهم، وبين تصرفات بعض قادة الجيوش، الذين يتصرفون أحيانًا بما لا يوافق هوى نفوس جنودهم، فهل يفعلون هكذا؟! أم يمضون في تصرفاتهم، لا يلوون على شيء، وإذا ما لاح لهم أَنْ ثمة انتقاد لهذا التصرف، فليس هناك اعتذار أو تسوية، كما فعل رسول الله ﷺ، إنما هي العقوبة والتنكيل.

رابعًا: إمضاؤه ﷺ أمان النساء وجوارهنّ

لم يكن ﷺ ليخفر ذمة أحد من أصحابه، أجار مشركًا أو نحوه، وذلك تقديرًا لهم واحترامًا، سواء أكان المجير ذكرًا أم أنثى، وهو القائل: «**يسعى بذمتهم أدناهم**»[(٢)]، والقائل: «**ذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلمًا فعليه مثل ذلك**»[(٣)] أي: من لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

فعن أم هانئ[(٤)] رضي الله عنها قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح

---

(١) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٣٠٧).

(٢) البخاري (٦٧٥٥) كتاب الفرائض، باب: إثم من تبرأ من مواليه.

(٣) البخاري (٣١٧٢) كتاب الجزية والموادعة، باب: ذمة المسلمين وجوارهم واحدة، يسعى بها أدناهم.

(٤) **أم هانئ**: اسمها فاختة، وقيل: فاطمة، وقيل: هند، كانت زوجة هبيرة بن عمرو، ثم فرّق الإسلام بينهما، فخطبها النبي ﷺ فقالت: والله إني كنت أحبك في الجاهلية، فكيف في الإسلام؟! ولكني امرأة مصبية - أي عندها صبية صغار - فأكره أن يؤذوك، فقال ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد...». ر: الإصابة (٨/ ٤٨٥).

فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، فسلمت عليه، فقال: من هذه؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحبًا بأم هانئ، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني ركعات، ملتحفًا في ثوب واحد. فقلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي عليّ أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**» قالت أم هانئ: وذلك ضحى[(١)]، وفي رواية: «**قد أجرنا من أجرت، وأمنّا من أمنتِ**»[(٢)].

وعندما لحق عكرمة بن أبي جهل باليمن بعد فتح مكة، وقد أهدر دمه ﷺ جاءت زوجته أم حكيم، فاستأمنت له رسول الله ﷺ فأمّنه، فلحقت به باليمن، فجاءت به وأسلم[(٣)].

قال الخطابي: «وأجمع عوام أهل العلم على أن أمان المرأة جائز، وكذلك أكثر الفقهاء في أمان العبد»[(٤)].

وهذا المعنى حفظه الصحابة عن رسول الله ﷺ من بعده، فكانوا لا يخفرون ذمة أحد من المسلمين، بل يمضون جوار العبد وأمانه، وهذا ما التزمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل جند يسابور[(٥)] وغيرهم إذ كانوا يمضون أمان وجوار أي فرد من المسلمين، ذكرًا أم أنثى، حرًّا أم عبدًا.

---

(١) البخاري (٣١٧١) كتاب الجزية والموادعة، باب: أمان النساء وجوارهن.

(٢) أبو داود (٢٧٦٣) كتاب الجهاد، باب: في أمان المرأة.

(٣) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٨).

(٤) ر: معالم السنن (٣/ ١٩٣ - ١٩٤)، فتح الباري (٦/ ٣١٥).

(٥) فتح المسلمون جند يسابور عام (١٩هـ)، في أيام عمر رضي الله عنه، حاصروها مدة، وإذا بالمسلمين يفاجؤون بأبوابها تفتح، وخرج السرح، وفتحت الأسواق، وانبثّ أهلها،=

المطلب الثاني

حلم النبي ﷺ على أصحابه في الحرب

والحديث عن ذلك يتناول: الحلم على من أخطأ وأعان الأعداء، والحلم على المنافقين.

أولاً: حلمه ﷺ على من أخطأ وأعان الأعداء

الحلم: نقيض السفه، وهو الأناة والعقل[(١)]، وهو مقامٌ سامٍ، وخلق رفيع، قال ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[(٢)]، ولقد كان ﷺ المثل الأعلى في الحلم والأناة، لا يغضب، ولا يفنّد، ولا يوبّخ أحدًا، لا في حرب ولا في سلم، إلا إذا انتهكت حرمات الله تعالى، فيغضب لها، ومما يؤكد ذلك:

= فأرسل المسلمون: ما خبركم؟ قالوا: إنكم رميتم إلينا بالأمان، فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا، فقالوا: ما فعلنا، فقالوا: ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبدٌ يدعى: مكنفًا، كان أصله منها، وهو الذي كتب لهم الأمان، فقال المسلمون: إن الذي كتب إليكم عبد، قالوا: لا نعرف عبدكم من حركم، فقد جاء الأمان، ونحن عليه قد قبلناه، ولم نبدّل، فإن شئتم فاغدروا، فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر رضي الله عنه، فأمر بإمضائه، فانصرفوا عنهم !. وقال عاصم بن عمرو في مصداق ذلك: [البحر الطويل]

لعمري لقد كانت قرابة مكنفٍ ... قرابة صدق، ليس فيها تقاطع

أجارهم من بعد ذلٍ وقلّةٍ ... وخوف شديد والبلاد بلاقع*

فجاز جوار العبد بعد اختلافنا ... وردّ أمورًا كان فيها تنازع

إلى الركن والوالي المصيب حكومة ... فقال بحقٍّ ليس فيه تخالع

ر: معجم البلدان (٢/ ١٧١).

* والبلاقع: الأرض الخالية القفرة، لا شجر فيها. ر: لسان العرب (٨/ ٢١) مادة: (بلقع).

(١) ر: لسان العرب (١٢/ ١٤٦).

(٢) أبو داود (٥٢٢٥) كتاب الأدب، باب: في قبلة الرّجل.

حلمه ﷺ على حاطب بن أبي بلتعة[١]، إبّان غزوة الفتح، عندما أرسل رسالة يخبر أهل مكة بتوجه المسلمين إليهم، فعن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ**[٢]، **فإن فيها ظعينة معها كتاب، فخذوا منها**» قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقينّ الثياب. قال: فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة، إلى ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب ما هذا؟**» قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقًا في قريش – يقول: كنت حليفًا – ولم أكن من أنفسها، وكان مَنْ معك من المهاجرين مَنْ لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه قد صدقكم**» فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» فأنزل الله تعالى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ إلى قوله تعالى:

---

(١) أصله من اليمن، كان حليفًا للزبير، وممن شهد بدرًا، وكان بنوه وإخوته في مكة، فكتب كتابه إلى كبار قريش ينصح لهم. توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ثلاثين. ر: الإصابة (٢/ ٤).

(٢) مكان بين الحرمين، قرب حمراء الأسد. ر: معجم البلدان (٢/ ٣٣٥).

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١][(١)].

فقد كانت كل المؤشرات تشير إلى تعاونه وتواطئه مع العدو، حتى إن عمر رضي الله عنه استأذن النبي ﷺ بضرب عنقه، فأخذه بحلمه قائلاً: «**إنه قد شهد بدرًا**» وتريث في أمره إلى أن نزلت الآية السابقة، تشهد له بالإيمان[(٢)].

فلقد كان لخلقه وحلمه هذا ﷺ أثر في عواقب الأمور، وفي نفس حاطب والصحابة أجمعين، من أنه نزل فيه قرآن يؤيِّد ما ذهب إليه ﷺ من حسن الظن، والتريث والتأني، على أنه مؤمن، وقد عاتبه ربه سبحانه لموالاته الأعداء، وإلا كان من الطبيعي أن يؤاخذه ﷺ بجريرة عمله ظاهرًا، ويحكم بتجسسه لصالح الأعداء، وينزل فيه من العقوبة ما يستحق.

ثانيًا: حلمه ﷺ على المنافقين[(٣)]

فقد حاول المنافقون الكيد لرسوله ﷺ في السلم وفي الحرب، فباءت بالفشل؛ لأن الله تعالى حافظ نبيه. ولقد كان ﷺ يعلم حقيقة أمرهم، ولا يخفى عليه من حالهم شيء، غير أنه كان يترفق بهم كل مرة، وهذا ما تؤكده الوقائع التالية:

١- **ففي غزو بني المصطلق (٥هـ)**: اختصم غلامان: أحدهما من الأنصار،

---

(١) البخاري (٤٢٧٤) كتاب المغازي، باب: غزوة الفتح، وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، يخبرهم بغزو النبي ﷺ، مسلم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

(٢) ر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٣٩٥)، سورة الممتحنة، سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٩).

(٣) اعتبرنا المنافقين من أصحابه ﷺ لظاهر قوله: «حتى لا يقال: إن محمدًا يقتل أصحابه» فقد سماهم أصحابه مجازاً، وتأليفًا للقلوب، مع أنه لا يشك بكفرهم.

والآخر من المهاجرين[١]، فنادى الأنصاري: يا معشر الأنصار، ونادى المهاجري: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وقال: أَوَقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ! والله ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك ! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وقال لأصحابه: لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، فسمع ذلك زيد بن أرقم[٢] رضي الله عنه، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، قال زيد: فكذّبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمّي: ما أردت إلا أن كذّبك رسول الله ومقتَك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليّ النبي ﷺ فقرأ فقال: «**إن الله قد صدقك يا زيد**»[٣]. فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، مُرْ عبّاد بن بشر فليضرب عنقه، فقال: «**فكيف إذا تحدّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**» وفي رواية: قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٤].

٢- **وفي غزوة حنين (٨هـ)**: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لما كان

---

(١) **الأنصاري**: سنان بن دبر الجهني، حليف بني عوف من الخزرج، **والمهاجري**: جهجاه بن مسعود الغفاري، أجير عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ر: البداية والنهاية (٤/ ١٨٧).

(٢) **هو**: زيد بن أرقم بن زيد، الأنصاري، الخزرجي، غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، شهد صفين مع علي رضي الله عنه، توفي في الكوفة سنة (٦٦هـ). ر: الإصابة (٢/ ٤٨٧).

(٣) البخاري (٤٩٠٠) كتاب التفسير، باب: سورة المنافقين.

(٤) البخاري (٤٩٠٧) كتاب التفسير، باب: سورة المنافقين أيضًا. ر: زاد المعاد (٣/ ٢٦٨، ٢٦٩)، البداية والنهاية (٤/ ١٨٧ - ١٨٨).

يوم حنين، آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذٍ في القسمة، قال رجل[١]: والله إن هذه القسمة ما عُدِلَ فيها، وما أريد بها وجه الله ! فقلت: والله لأخبرنّ النبي ﷺ، فأتيته فأخبرته فقال: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[٢].

٣- وفي غزوة تبوك (٩هـ): فقد تآمر المنافقون على طرح النبي ﷺ من رأس عقبةٍ، أثناء عودتهم في الطريق، لكنهم فشلوا، وحمى الله سبحانه نبيه ﷺ، إذ دخلهم الرعب عندما أدركوا انكشاف أمرهم، عندما قال ﷺ لصاحبيه الملازمانه: حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر: «**هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟**» قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: «**فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا اطلعت في العقبة طرحوني منها**» قالوا: أولا تأمر بهم يا رسول الله فنضرب أعناقهم؟ قال: «**أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمدًا قد وضع يده في أصحابه، فسماهما لهما وقال: اكتماهم**»[٣].

فانظر إلى مدى حلمه وصبره ﷺ على هؤلاء الكفرة الذين يلبسون ثوب الإسلام، رفَقَ بهم، وأحسن معاملتهم، وتجاهل إساءتهم، وحال بين أن ينالهم أيّ أذى، ومنع أصحابه من أن يمسّوهم بشيء، قائلاً: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه!**» ومع ذلك أمر بسترهم ! لا شك أنها أخلاق النبوة.

---

(١) قال ابن حجر: «وفي رواية الواقدي أنه معتب بن قشير من بني عمرو بن عوف، وكان من المنافقين». ر: فتح الباري (٧/ ٦٥٢).

(٢) البخاري (٣١٥٠) كتاب فرض الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة وغيرهم من الخمس.

(٣) ر: زاد المعاد (٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦).

المبحث الثالث

عدل النبي ﷺ بين أصحابه في الحرب ومواساته لهم

- المطلب الأول: عدل النبي ﷺ بين أصحابه في الحرب.
- المطلب الثاني: مواساة النبي ﷺ لأصحابه في أعمال الحرب.

المطلب الأول

عدل النبي ﷺ بين أصحابه في الحرب

والحديث عنه يتناول: عدله ﷺ بين الجند في المهامّ، وعدله ﷺ مع نفسه وحلفائه.

أولاً: عدله ﷺ بين الجند في المهامّ

ما كان ﷺ ليقرّب أناسًا، ويبعد آخرين من أصحابه، وما كان ليفرّق بين كبير وصغير في تولي المهام، إنما هم أمامه سواء، وما يفرّق بينهم إلا بالقدرات والكفاءات[1]، وما يلي يؤكد هذه المعاني:

---

(١) فلقد كان ﷺ يستفيد من مختلف طاقات وقدرات أصحابه في الحروب وغيرها.

- فمنهم المتميز بالقيادة والقتال، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فيفيد منهما، رغم حداثة إسلام كل منهما.
- ومنهم المتميز بالبذل والعطاء، كعثمان رضي الله عنه، أفاد المسلمون من ثرائه ولم =

١- عدالته ﷺ في الترشيح للمخاطر

- ففي غزوة بدر (٢هـ): عندما طلب فرسان قريش المبارزة قبل الالتحام، نزل إليهم ثلاثة شبّان من الأنصار، فأبوا قائلين: أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمّنا، فقال ﷺ: «**قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث...**» [(١)] وكانت المبارزة.

فقد رشّح ﷺ للموت أقرب الناس إليه، فلم يحابي، ولم يباعد عنهم الخطر، وكان بإمكانه أن يرشح غيرهم، أو أن يترك الأمر للاختيار، ولكن أراد ﷺ أن يرسخ أعلى درجات العدالة والمساواة بين القائد وجنده، ويبدأ بأقرب الناس إليه.

- وهذا جعفر بن أبي طالب [(٢)] رضي الله عنه، ابن عمه، الذي أمضى نحو ثلث عمره مع أسرته في الحبشة مهاجرًا، فما إن يرجع إلى المدينة يرشحه ﷺ

= نسمع أن النبي ﷺ كلفه بمنازلة الأقران، أو حمل اللواء.

- ومنهم المتميز بشعره، كحسان بن ثابت، فقد استفاد المسلمون من قابليته الشعرية، وكان يثني عليه ﷺ في شعره، ولكن أثناء الحرب كان يجعله مع النساء؛ إذ لا طاقة له بالقتال.

- وكان الكثير من أصحابه ﷺ يعدون من أشجع الشجعان، ولكن أبقاهم ﷺ جنودًا في الجيش، لم يولّهم قيادةً؛ لأنهم كانوا جنودًا متميزين، ولم يكونوا قادة متميزين.

- وهناك الماهر بالقراءة والكتابة، أفاد منه ﷺ في كتابة الوحي، ومراسلة الملوك والأمراء. وهكذا.

ر: المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية (٤/ ٤٧٥ - ٤٧٧) بحث للواء: محمود شيث خطاب.

(١) أبو داود (٢٦٦٥) كتاب الجهاد، باب: في المبارزة، البداية والنهاية (٣/ ٧١١).

(٢) هو: ابن عم النبي ﷺ، وشقيق علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا، ولا وطئ التراب بعد رسول الله ﷺ =

للموت في غزوة مؤتة، وكان بالإمكان استبقاؤه والاكتفاء بهجرته ودعوته التي دامت نحو أربعة عشر عامًا ! فينعم بالراحة مع زوجته وأولاده، ولكن ما هي إلا عدالة النبي ﷺ، والمساواة بين أصحابه.

٢- عدالته ﷺ في عقد الألوية:

فلقد كان ﷺ يوازن بين فئات المجتمع في تولي القيادة، فلا يجعلها قاصرةً على قريش، أو على الأوس، أو الخزرج، إنما كان ﷺ يساوي بين أطياف المسلمين، لا يفرق بين سابق إلى الإسلام وحديث عهدٍ به.

- ففي غزوة أحد (٣هـ) أعطى اللواء لمصعب بن عمير[١]، رضي الله عنه، وهو من المهاجرين السابقين.

- وفي غزوة بني المصطلق - المريسيع - (٥هـ) كانت راية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة[٢]، رضي الله عنهما.

- وفي غزوة ذات السلاسل (٨هـ) عقد لواء الجيش لعمرو بن العاص، رضي الله عنه، وهو حديث عهد بالإسلام[٣].

= أفضل من جعفر ابن أبي طالب، وقال له النبي ﷺ: «أشبهت خلقي وخلقي»، هاجر إلى الحبشة، وأسلم النجاشي ومن تبعه على يديه، استشهد في مؤتة وعمره أربعون سنة. ر: الإصابة (١/ ٥٩٢).

(١) هو: مصعب بن عمير بن هاشم، من بني عبد الدار، من قريش، هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وأسلم على يديه خلق كثير، كان منعمًا، وعندما استشهد في أحد لم يجدوا ما يكفنونه إلا ثوبًا، إذا غطوا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطوا رجلاه بدا رأسه !. ر: الإصابة (٦/ ٩٨).

(٢) ر: زاد المعاد (٣/ ٢٥٧).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٣٨٦).

- وفي غزوة مؤتة (٨هـ) عقد اللواء لثلاثة[١] على التسلسل:

الأول: زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو مولى. **والثاني**: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو من المهاجرين. **والثالث**: عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وهو من الأنصار.

- وقبل وفاته ﷺ يعقد لواء الحرب لأسامة بن زيد رضي الله عنه، وهو مولى، ويؤمِّره على جيش فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ولم يتجاوز سن الثامنة عشرة[٢].

ثانيًا: عدالته ﷺ مع نفسه وحلفائه

١- أما مع نفسه الشريفة ﷺ ففي غزوة بدر (٢هـ) بينما كان يعدّل صفوف المسلمين، كان في يديه قِدْح يعدّل به، وكان سواد بن غزيّة متقدمًا من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «**استوِ يا سواد**» فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتني فأقِدني، فكشف ﷺ عن بطنه وقال: «**استقد**» فاعتنقه سواد وقبّل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بأن يمسّ جلدي جلدك ! فدعا له رسول الله ﷺ بخير[٣].

فانظر إلى عدالته ﷺ مع نفسه، وهو في أحلك الظروف وأشدها، ولكن الحقّ أحقّ أن يتّبع، فما منعه مقامه العلي السامي، وعظمته في نفوس أصحابه، من أن يضع نفسه ﷺ موضع تنفيذ العدالة، وهو القود ! ولكن الصحابي الجليل بأدبه وحبه الشديد رضي الله عنه أراد أمرًا آخر.

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٧٣).

(٢) ر: البداية والنهاية (٦/ ٣٧١).

(٣) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٩)، الرحيق المختوم ص (٢٣٤ - ٢٣٥).

٢- وأما عدالته ﷺ مع حلفائه[١]:

وذلك أن بني خزاعة حينما دخلوا في حلفه ﷺ بعد صلح الحديبية (٦هـ) كان لهم من الحق عند النبي ﷺ ما للمسلمين من الدفاع عنهم والنصرة، فعندما غدر بهم بنو بكر، حلفاء قريش وناصروهم خفيةً، كان من العدل والإنصاف وحفظ العهد والميثاق أن يناصرهم المسلمون، وهذا ما حصل فعلاً. فقد جاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي ﷺ فأنشده أبياتًا يصف فيها غدرهم[٢]، فقام النبي ﷺ يجرّ رداءه قائلاً: «**لا نصرتُ إن لم أنصر بني كعب، مما أنصر منه نفسي**» وقال: «**إن هذا السحاب ليستهل بنصر بني كعب**»[٣]، وأمر الناس بالتجهز، وكانت غزوة الفتح. فقد اعتبر ﷺ أن هذا الغدر من بني بكر، والمؤازرة الخفية من قريش نقضًا صريحًا

---

(١) أوردت أخلاقه ﷺ مع حلفائه، مع زمرة أصحابة على أنهم من جانبه في الحرب، ويجمعهم التحالف على المشركين.

(٢) قال فيها: [بحر الرجز]

يا ربِّ إني ناشد محمدًا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلْدًا وكنا والدًا ... ثُمّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرًا أعتدا ... وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا ... إن سيم خَسْفًا وجهه تربّدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدًا ... إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك الموكّدا ... وجعلوا لي في كداء رصّدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيتونا بالوتير هجّرا ... وقتلونا ركّعًا وسجّدا

ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٤ - ٣٩٥)، البداية والنهاية (٤/ ٣٢٣).

(٣) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٢٧٦).

لصلح الحديبية[١]، وحفظ العهد والميثاق يملي عليه التوجه إلى نصرتهم، مهما كانت الظروف والنتائج، وهذه من قواعد العدالة والإنصاف.

المطلب الثاني

مواساة النبي ﷺ لأصحابه في الحرب

والحديث عنه يتناول: مواساته ﷺ لهم في أعمال الحرب، ومواساته لهم في ضروريات الحياة.

أولاً: مواساته ﷺ لأصحابه في أعمال الحرب

فقد كان ﷺ يقوم بالأعمال بيده الشريفة، بما يقوم به عامة أصحابه، ويتحمل معهم من المشاق ما يتحملون، لا يؤثر نفسه ﷺ بشيء عليهم، ولا يقصّر في واجب يقومون به.

١- ففي طريقهم إلى بدر (٢هـ)، كان يتناوب مع أصحابه ﷺ ركوب البعير، وهم الحريصون بل السعداء بركوبه وراحته، ولكن كانت نفسه الأبيّة تأبى عليه ذلك. فقد تعاقب مع علي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد رضي الله عنهما ركوب البعير[٢]، وفي رواية لابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير - أي يتعاقبونه - وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ - نوبته بالمشي - قال: فقالا نحن نمشي عنك، فقال: «**ما أنتما بأقوى منّي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[٣].

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٠)، زاد المعاد (٣/ ٣٩٦)، البداية والنهاية (٤/ ٣٢٢ - ٣٢٣).

(٢) ر: سيرة ابن هشام (١/ ٦١٣)، زاد المعاد (٣/ ١٧١).

(٣) المسند (٧/ ١٧) (٣٩٠١) وإسناده حسن.

٢- وفي حفر الخندق (٥هـ): فقد كان رسول الله ﷺ يمسك المعول بيده الشريفة ويضرب الصخر مع أصحابه[١]. فهي مساواة حقيقية بين القائد وجنده، ليست مجرد شعارات يُزيّن بها ظاهر المجتمع، فأنت تجد أن رسول الله ﷺ لم يندب المسلمين إلى حفر الخندق، ثم ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحًا هادئًا، ولا أقبل إليهم في احتفال صاخب رنّان، ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه، فيضرب به ضربةً واحدة في الأرض، إيذانًا ببدء العمل، وتخييلاً لهم أنه قد شاركهم في ذلك، ثم يلقي المعول ويدير إليهم ظهره، لينفض عن حلته ما قد علّق بها من ذرات الغبار، إنما انخرط ﷺ في العمل كأي واحد من أصحابه، حتى أُلبس ثوبًا من الأتربة والغبار[٢]، وشدّ الحجر على بطنه من الجوع ! روى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب، وخَنْدقَ رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عني الترابُ جلدة بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل التراب يقول: [بحر الرجز]

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلنْ سكينةً علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إنّ الألى [٣] قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبينا

قال: ثم يمدّ صوته ﷺ بآخرها[٤].

---

(١) البخاري (٤١٠١) كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق.

(٢) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٢٣١).

(٣) إن الألى قد بغوا علينا: ليس بموزون، والتقدير: إن الذين قد بغوا، قد بغوا علينا. ر: فتح الباري (٧/ ٤٦٣).

(٤) البخاري (٤١٠٦) كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب.

ثانيًا: مواساته ﷺ لأصحابه في ضروريات الحياة

وذلك كالطعام ونحوه، فما كان ﷺ ليستأثر بشيء من هذا النوع ويدع أصحابه، إنما يواسيهم، ويجعل نفسه الشريفة كواحدة منهم. قال جابر رضي الله عنه: إنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت لنا كُدْية[١]، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل - أو أهيَم - فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحتُ العناق، وطحنتْ الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبُرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد نكسر، والبُرمة بين الأثافي[٢]، قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعيّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيّب، قال: قل لها: لا تنزع البُرْمة ولا الخبز من التّنور حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: وَيْحَك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ فقلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسّر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمّر[٣] البُرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرّب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسّر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة[٤]. وفي رواية: فصاح النبي

---

(١) الكدية: الأرض الصلبة، وجمعها كدى، مثل مُدْية ومُدى. ر: المصباح المنير ص (٢٧٢) مادة: (كدي).

(٢) الأثافي: الحجارة التي توضع عليها القدر، وهي ثلاثة.

(٣) أي: يغطي، والخمار: هو الغطاء.

(٤) البخاري (٤١٠١) كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب. ر: البداية والنهاية (٣/ ١١٨).

ﷺ: يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سؤرًا... ثم قال: ادع خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو[1].

فقد أوردنا القصة بطولها، ووقفنا على معجزة نبوية باهرة للنبي ﷺ، ألا وهي تكثير الطعام، ولكن الشاهد الأهم في إيرادها الوقوف على مواساة النبي ﷺ لأصحابه في الطعام، فقد كانت الدعوة خاصة له ﷺ ولنفرَيْن أو ثلاثة من أصحابه، ولكن أبت نفسه الكريمة أن يتميز عن أصحابه، فيأكل ولا يأكلون، فدعاهم جميعًا، معتمدًا على ربه سبحانه وتعالى، واثقًا من تأييده له بهذه المعجزة، وقد تحقق ذلك.

ومثل هذه المواساة للأصحاب، حصلت مرة ثانية في غزوة الخندق ذاتها، عندما جاءت ابنة بشير (أخت النعمان بن بشير) رضي الله عنهم جاءت بحفنة تمر لوالدها وخالها عبد الله بن رواحة رضي الله عنهما، فأخذها ﷺ منها، ودعا أهل الخندق إليه، وكانت وليمةً عظيمةً[2].

---

(١) البخاري (٤١٠٢) كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب.

(٢) ر: البداية والنهاية (٣/ ١٢٠).

obeikandl.com

المبحث الرابع

تأديب النبي ﷺ أصحابه على آداب الحرب المتعلقة بهم

- المطلب الأول: نهي النبي ﷺ عن الغُلول والنُّهبى.
- المطلب الثاني: تأديب النبي ﷺ المتخلفين عن الغزو والسباقين إلى المغنم.

المطلب الأول

نهي النبي ﷺ عن الغلول والنُّهْبى

والحديث عن هذا يتناول فقرتين اثنتين: النهي عن الغلول، والنهي عن النّهبى، وذلك على النحو التالي:

أولاً: نهيه ﷺ عن الغلول

الغلول: هو الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة[1]، ولقد كان ﷺ يحذر من الغلول في الحرب، وقد نزل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

---

(١) ر: لسان العرب (١١/ ٥٠٠)، مختار الصحاح (٤٧٩) مادة: (غلل).

فقد روى زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر (٧هـ) فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**صلوا على صاحبكم**» فتغيّرت وجوه الناس لذلك، فقال: «**إن صاحبكم غلّ في سبيل الله**» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزًا من خرز يهود لا يساوي درهمين [١].

فهذه الإشارة القولية منه ﷺ أفهمت خطورة الغلول، وسوء عاقبته، من أنه حَرَم صاحبَه من بركة صلاة النبي ﷺ. وحسبنا في ذلك حديث العبد الذي أصابه سهم بعد خيبر، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: «**بلى والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغنم لم تصبْها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا... **» [٢].

ولقد أمر ﷺ بإحراق المتاع المغلول وضرب صاحبه عقوبةً له.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا وجدتم الرجل قد غلّ فأحرقوا متاعه واضربوه**»[٣]. كما حذر ﷺ من الستر عليه فقال: «**من كتم غالاً فإنه مثله**»[٤].

فكل هذه الأحاديث والوقائع تؤكد قبيحة هذا الخلق (الغلول) في الحرب؛ لأنه خيانة وأنانية، وأكل لأموال الناس بالباطل، فلذلك كان هذا التهديد والوعيد عليه.

ثانيًا: نهيه ﷺ عن النُّهبى

النهبى: هي اسم الانتهاب، على وزن: فُعلى، وهي الغارة والسلب، ولا يكون عادة في شيء عالي القيمة، وغالب ما يؤخذ بالقوة والقهر[٥].

---

(١) أبو داود (٢٧١٠) كتاب الجهاد، باب: في تعظيم الغلول.

(٢) البخاري (٤٢٣٤) كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر.

(٣) أبو داود (٢٧١٣) كتاب الجهاد، باب: في عقوبة الغال.

(٤) أبو داود (٢٧١٦) كتاب الجهاد، باب: النهي عن الستر على من غلّ.

(٥) ر: لسان العرب (١/ ٧٧٣)، مختار الصحاح ص (٦٨١) مادة: (نهب).

فلما كانت قواعد الإسلام وتعاليمه تنهض على أساس من العدالة والإنصاف والتنظيم في كل شيء، وإعطاء كل ذي حق حقه، فقد نهى ﷺ عن هذا السلوك الخاطئ. فقد روى أبو لبيد قال: كنا مع عبد الرحمن بن سمرة[١] بكابل، فأصاب الناس غنيمة، فانتهبوها[٢]، فقام خطيبًا فقال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النُّهبى[٣].

قال الخطابي: « وإنما نهى عن النهب؛ لأن الناهب إنما يأخذ ما يأخذه على قدر قوته، لا على قدر استحقاقه، فيؤدي ذلك إلى أن يأخذ بعضهم فوق حظه، وأن يُبخس بعضهم حقه، وإنما لهم سهام معلومة: للفارس سهمان، وللراجل سهم، فإذا انتهبوا الغنيمة بطلت القسمة، وعدمت التسوية»[٤].

ولم يكتفِ ﷺ بالنهي عن النهبى، بل عاقب عليها؛ زجرًا لأهلها.

فقد روى عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل[٥] من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس حاجةٌ شديدة وجهد، وأصابوا غنمًا

---

(١) كان اسمه: عبد كلال، وقيل: عبد الكعبة، فغيّره النبي ﷺ، أسلم عام الفتح، وشهد تبوك وفتوح العراق، وهو الذي فتح سجستان في خلافة عثمان رضي الله عنه، وغزا بعدها خراسان وفتح فيها فتوحًا، ثم رجع إلى البصرة ومات فيها سنة (٥٠هـ). ر: الإصابة (٤/ ٢٦٢ - ٢٦٣).

(٢) أي: تنازعوها وأخذوها بالقهر والقوة، دونما قسمة.

(٣) أبو داود (٢٧٠٣) كتاب الجهاد، باب: في النهي عن النهبى.

(٤) ر: معالم السنن (٣/ ١٥١).

(٥) الجهالة تضر فيما لو كانت في رجال سند الحديث في غير الصحابي، أما هنا فالمجهول هو صحابي، فلا تضر؛ لأنهم كلهم عدول رضوان الله عليهم، وغير خاضعين لمقاييس الجرح والتعديل.

فانتهبوها، فإن قدورنا لتغلي - أي من لحمها - إذ جاء رسول الله ﷺ يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يرمّل اللحم بالتراب، ثم قال: «**إن النهبة ليست بأحلّ من الميتة، أو: إن الميتة ليست بأحلّ من النهبة**»[١].

فانظر إلى هذا التأديب النبوي لأصحابه، فقد أتلف عليهم طعامهم، وهم بأمسّ الحاجة إليه؛ لأنهم حصلوا عليه بصورة غير مشروعة، ولما علم منه ﷺ الرحمة بالناس وتعظيم النعمة مهما دقّت، ومع ذلك أتلف، عُلِم خطورة هذا التصرف، وسوء عاقبته، فهو تصرف فوضوي عشوائي، يأباه الإسلام وقواعد العدالة التي جاء بترسيخها النبي ﷺ.

المطلب الثاني

تأديب النبي ﷺ المتخلفين عن الغزو والسبّاقين إلى الغنيمة

فقد أدب ﷺ بعضهم بالمقاطعة، والبعض الآخر بالحرمان؛ وذلك تطهيرًا لنفوسهم، وتربية لهم، ورحمة بهم.

أولاً: تأديبه ﷺ المتخلفين عن الغزو

فلقد كان ﷺ شديد الرحمة والرأفة بأصحابه، ومع ذلك فكان يقسو أحيانًا على بعضهم، تأديبًا لهم، وإصلاحًا لشأنهم، وشحذًا لهممهم. قال الشاعر: [البحر الكامل]

فقسا ليزدجروا ومن يك راحمًا فليقس أحيانًا على من يرحم

فعندما تخلف أصحابه ﷺ الثلاثة (كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية) عن غزوة تبوك (٩هـ) أدبهم ﷺ فأحسن تأديبهم، وكان ذلك

---

(١) أبو داود (٢٧٠٥) كتاب الجهاد، باب: في النهي عن النهبى.

تربية لهم، ولأصحابه ﷺ وللمسلمين جميعًا، مشعرًا إياهم خطورة هذا التواني عن الجهاد؛ وذلك لئلا يتخلف مَنْ بعدهم. وهذا ما ذكره كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل[1]، وقد جاء فيه: أنه عندما سلم على النبي ﷺ تبسّم تبسُّمَ المغضب، وفي رواية: فأعرض عنه، فقال: يا نبي الله، لم تعرض عنّي؟ فوالله ما نافقتُ ولا ارتبتُ ولا بدلتُ، قال: «**فما خلّفك؟**» ثم إنه ﷺ نهى المسلمين عن تكليم هؤلاء الثلاثة خمسين يومًا ! قال كعب: فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا في ذلك خمسين يومًا، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم أجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام علي أم لا؟... حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمّي وأحبّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك الله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار... حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين، إذ رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك...

فانظر إلى هذه التربية السلوكية، والآداب المحمدية، التي أدب بها النبي ﷺ أصحابه، عندما تخلفوا عن الغزوة مرةً واحدةً.

---

(١) البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، باب: حديث كعب بن مالك.

قال ابن حجر: «... وأن الإمام إذا استنفر الجيش عمومًا لزمهم النفير، ولحق اللوم بكل فرد لو تخلف. قال السهيلي: إنما اشتد الغضب على من تخلف، وإن كان الجهاد فرض كفاية، لكنه في حق الأنصار خاصة فرض عين؛ لأنهم بايعوا على ذلك، ومصداق ذلك قولهم وهم يحفرون الخندق: [البحر الكامل]

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة؛ لأنها كالنكث لبيعتهم، كذا قال ابن بطال »[(١)].

ثانيًا: تأديبه ﷺ السبَّاقين إلى الغنيمة

فكما أدب ﷺ أولئك المتخلفين عن الغزو، فقد أدب هؤلاء المسارعين إلى الغنائم، المتطلعين لها، المختلفين من أجلها.

والحقيقة أن المقصد من الجهاد إعلاء كلمة الله تعالى، وما الغنائم ولا السبي إلا تبع لهذا الواجب، ليست مقصودة لذاتها، ولكن نفوس البشر تميل بطبيعتها إلى حب الدنيا والمال. ولقد حصل خلاف حول الغنائم بين الصحابة عقب غزوة بدر، عبر عنه عبادة بن الصامت رضي الله عنه بقوله: ساءت فيه أخلاقنا[(٢)]. وهم خير الناس بعد رسول الله ﷺ، فلا عجب في ذلك، فهذه طبيعة النفس البشرية، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨] فجاء البيان الإلهي فأدبهم على لسان نبيه ﷺ.

فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «من

---

(١) ر: فتح الباري (٧/ ٧٢٩).

(٢) ر: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣١٥)، سورة الأنفال.

فعل كذا وكذا فله من النفل[١] كذا وكذا» قال: فتقدم الفتيان، ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها، فلما فتح الله عليهم قال المشيخة: كنا ردءًا لكم، لو انهزمتم لفئتم إلينا، فلا تذهبوا بالمغنم فنبقى. فأبى الفتيان وقالوا: جعله رسول الله ﷺ لنا، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١][٢] وفي رواية: **«... فجاء أبو اليسير بأسيرين فقال: يا رسول الله – صلى الله عليك – أنت وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظةً عليك، مخافة أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا[٣]، ونزل القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ**

---

(١) قال الخطابي: « قلت: النفل ما زاد من العطاء على القدر المستحق منه بالقسمة، ومنه النافلة، وهي الزيادة من الطاعة بعد الفرض، وكان رسول الله ﷺ ينفل الجيوش والسرايا، تحريضًا على القتال، وتعويضًا لهم عما يصيبهم من المشقة والكآبة، ويجعلهم أسوة الجماعة في سُهمان الغنيمة، فيكون ما يخصهم به من النفل كالصلة والعطية المستأنفة، ولا يفعل ذلك إلا بأهل الفناء في الحروب، وأصحاب البلاء في الجهاد ». ر: معالم السنن (٣/ ١٧٥).

(٢) أبو داود (٢٧٣٧) كتاب الجهاد، باب: في النفل.

(٣) إن هذا التشاجر حول الغنائم لا يقدح في عدالة الصحابة ومقامهم الرفيع، إنما كان اختلافهم اختلاف فهم، لا نزاعًا على الدنيا وحطامها، وهم الذين باعوا أنفسهم لله ورسوله. وهذا سيد قطب رحمه الله يوجّه هذا الاختلاف بقوله: «ولقد يدهش الإنسان عندما يرى أهل بدر يتكلمون في الغنائم، وهم إما من المهاجرين السابقين، الذين تركوا وراءهم كل شيء... وإما من الأنصار، الذين آووا المهاجرين وشاركوهم ديارهم وأموالهم، لا يبخلون في شيء من أعراض هذه الدنيا... ولكننا نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة في الروايات نفسها، لقد كانت الأنفال مرتبطة في الوقت ذاته بحسن البلاء في المعركة، وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء، وكان الناس يومئذٍ حريصين على هذه الشهادة من رسول الله ﷺ، ومن الله سبحانه وتعالى، في أول وقعةٍ يشفي فيها صدورهم من المشركين، ولقد =

ٱلْأَنفَالِ ﴾»[١].

فقد أدبهم القرآن الكريم آدابًا جمّة، هي:

- ترك الغنائم، فهي لله ورسوله، فالحكم فيها لرسول الله ﷺ أولاً وآخرًا.
- عالج نفوسهم: وذلك بتقوى الله تعالى، فقال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.
- دعا إلى إصلاح ذات البين، فقال: ﴿ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾.
- ودعا إلى طاعة الله ورسوله فقال: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾.
- وذكرهم بصفات المؤمنين، الذين يستحقون الدرجات العلى عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢][٢].

يقول الدكتور البوطي: « كما أن غزوة بدر هي أول تجربة للمسلمين في التضحية والقتال في سبيل الله تعالى، وهم على ما كانوا عليه من الضعف والقلة، فكذلك هي أول تجربة لهم في رؤية الغنائم والأموال أمامهم في أعقاب المعركة، وهم على ما كانوا عليه من الفقر والحاجة. ولقد عالجت الحكمة الإلهية تجربة

= غطّى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا في الأنفال حتى ذكّرهم الله سبحانه به وردّهم إليه، وذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم في التعامل، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر... ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً». في ظلال القرآن (٣/ ١٤٧٣).

(١) عزاه ابن كثير للثوري، وقد رواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما. ر: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣١٥)، سورة الأنفال.

(٢) ر: في ظلال السيرة النبوية (غزوة بدر الكبرى) ص (٨٧ – ٨٨).

القتال مع الضعف، بأن ثبّت الله قلوبهم وطمأن نفوسهم بالخوارق الدالة على النصر. ثم عالجت الحكمة الإلهية تجربة رؤية الغنائم والأموال مع الحاجة والفقر، بوسائل تربوية دقيقة جاءت في وقتها المناسب»[1].

فالخلاصة أن آيات الأنفال كانت تأديبًا من الله على لسان رسوله ﷺ لأصحابه، وتربية ربانية، تقبلتها نفوس الأصحاب طائعة راضية مسلّمة، دون تذمر أو سخط.

والخلاصة من هذا الفصل: أن أخلاقيات الحرب التي تعامل بها النبي ﷺ مع أصحابه، تجلت في النقاط الأساسية التالية:

١- الرحمة:

- فقد كان ﷺ رحيمًا بجنده، وخاصة بالمصابين منهم، والضعفة، وبمن ماتوا على طريق الغزو، وبالمنكوبين من الجنود، وبالأسرى.
- كما تجلت رحمته ﷺ بذوي الجند: بوالديهم، وبأسرهم، وأزواجهم.
- كذلك تجلت رحمته ﷺ بذوي الأعذار: الأطفال والنساء، وأولي الضرر من الرجال.

٢- التقدير والحلم:

- **أما التقدير**: فقد كان ﷺ يعرف قدر أصحابه، فيستشيرهم، ويستأذنهم بما يخصهم، ويحرص على تصفية قلوبهم، ويمضي جوار نسائهم.
- **وأما حلمه عليهم ﷺ**: فقد تجلى على من أخطأ من أصحابه وأعان الأعداء، وعلى المنافقين الكافرين.

---

(١) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (١٧٦ - ١٧٧).

٣- العدل والمساواة:

- **أما العدل:** فقد كان ﷺ يعدل بين الجند في الترشيح للخطر، وفي عقد الألوية.
- **وأما المواساة:** فإنه كان ﷺ يواسي أصحابه في أعمال الحرب، كما كان يواسيهم في ضروريات الحياة.

٤- تأديب الصحابة:

وذلك فيما يتعلق بهم خاصة، فقد نهى ﷺ عن الغلول والنهبى، كما أدب كلًّا من المتخلفين عن الغزو، والسبَّاقين إلى الغنيمة، وذلك بطرق تربوية فريدة.

هذه أبرز الجوانب الأخلاقية التي تجلت في سلوك النبي ﷺ مع أصحابه، والتي ظهرت لي من خلال تتبعي لسيرته ﷺ ومواقفه الحربية، وغزواته مع أعدائه.

obeikandl.com